ثقافة الطفل ولغة الشعر

يوسف وسطاني
مخبر تعليمية الترجمة وتعدد الألسن، جامعة وهران1
جامعة محمد الأمين دباغين، سطيف2 ـ الجزائر ـ
youcef_ammar@hotmail.fr

ملخص:
تتمحور هذه المداخلة حول ثقافة الطفل ولغة الشعر انطلاقا من محاولة عرض أهم المفاهيم لمصطلح الثقافة، وبلورة مفهوم يتماشى مع مقتضيات موضوع الملتقى، ثم تعريف وجيز لمعنى الطفولة وعالمها المشكل من جوانب نفسية فسيولوجية ومتطلبات مراحل النمو العقلي والنفسي للطفل، وما يجب أن يحاط به من رعاية مادية ومعنوية لينمو نموا سليما من جميع الجوانب وفق حاجاته. أما الشق الثاني فيتناول اللغة كوسيلة للتواصل ونقل المعارف والخبرات من حيث وظائفها ومستوياتها لدى الطفل، ثم الحديث عن لغة الشعر وخصائصها ومميزاتها وتأثيراتها في النمو الفكري والوجداني لدى الطفل وأهم الفروق بين اللغة الأم للطفل ولغة النصوص المترجمة له بلغة أجنبية.

كلمات مفتاحية: ثقافة؛ طفل؛ لغة؛ شعر؛ ترجمة.

تمهيد:

إنّ القول المتداول بأنّ عالمنا المعاصر غدا قرية صغيرة، متشابكة الأطراف مترابطة الأجزاء أضحى قولا مكرورا تجاوزته الأحداث ذلك أنّ واقعنا الحالي يفرض علينا قولا آخر أكثر حدّة في شكل سؤال: ماذا أعددنا من وسائل مادية ومعنوية لمواجهة آثار هذا "الاندماج" المفروض في عالم لا يرحم الضعيف؟، وكيف ننجو بمميزاتنا الثقافية من هذا الزخم المتراكم من الإنتاجات الفكرية والعلمية التي غطت كل مناحي الحياة، وبوتيرة متسارعة لا تعرف المهادنة، وتُرصد لها مل الإمكانات المادية من أجل ذيوعها على نطاق أوسع، وكان لذلك آثاره المختلفة في حياة الشعوب، إذ نتجت

عنه تطورات مذهلة في حياة الإنسان وألمت بجوانب حياته، فغدا في خضم هذا العراك الحضاري حائرا تتجاذبه التيارات المختلفة بوسائل واقية ودقيقة سهلة التناول وشديدة التأثير على خصوصيات هذا الإنسان الحضارية والفكرية، لأنها - أي التيارات السائدة- إنما تذاع وتنشر بأهداف وغايات مرسومة مسبقا، ولعل أبرز غاياتها فرض أنماط ثقافية وحضارية معينة، ترصد لها الأمم الراقية كل الإمكانات المطلوبة لنشرها وذيوعها على نطاق واسع، تمكنها في النهاية في بسط سيطرتها الثقافية على الأمم الضعيفة فتوجهها بذلك الوجهة التي تتماشى ومصالحها الآنية والمستقبلية، وهي تدرك بقوة أن الاستلاب الثقافي وهيمنته على هذه الأمم هو الضامن القوي لتحقيق تلك الأهداف والغايات، وإذا قيل أنّ الحضارة ميراث الإنسانية جمعاء - وهذا أمر لا يقبل الجدل – فإنّ تداخل الثقافات بين الشعوب وامتزاجها وتنوع منابعها يحتاج إلى أخذ ورد، وإن كان المقام لا يسمح بذلك فإنّ الإشارة تجدر إلى وجوب أخذ القدر الكافي من الحيطة والحذر في هذا المجال الحساس، وبإشارة موجزة الحرص على عدم الذوبان الثقافي في الغير مع ضرورة الاحتكاك به، والاستفادة قدر الإمكان من ثقافته وفق معايير خاصة تحول دون تقويض الأسس الثقافية للمجتمع،ومناط ذلك موكل للمسؤولين على عالم الثقافة بكل أشكالها في عالم الطفولة وهي عدة الأمم إذا تم إعدادها ثقافيا في خضم هذا المجال الواسع.

فما المقصود إذن بالثقافة؟ وما علاقتها بعالم الطفولة البريء؟ وما هي ثقافة الطفل وأسسها؟

مصطلح الثقافة:

في البداية نشير إلى أنّ هذا المصطلح تناولته كتب الفلسفة، والعلوم الاجتماعية، وكذا معاجم اللغة فيما يتعلق بجذر الكلمة الثلاثي، وضمن معان كثيرة[1]، نذكر البعض منها ثم نخلص منها بعرض إلى مفهوم موحد تكون له علاقة بالموضوع المتعلق بثقافة الطفل، ومن جذر كلمة ثقافة نأخذ في المعنى: ثقفت الشيء إذا لقيته مصادفة، كما في قوله تعالى: **"وضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا"** (آل عمران 112)، ومعنى ثقفوا هنا وجدوا بالصدفة.

المعنى الثاني" يتجلى في الظفر بالشيء والحصول عليه بالغلبة كما في قوله تعالى: "**إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء**"(الممتحنة 2)، والمعنى أن ينتصروا عليكم بالغلبة.

المعنى الثالث: الخصام والجلاد، كما في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "**إذا ملك اثنا عشر من بني عمرو بن كعب كان الثقف والثقاف إلى أن تقوم الساعة**"[2]، ومعناه وقوع الخصام والجلاد بين القوم وذلك في لفظ: الثقف والثقاف.

المعنى الرابع: إصلاح الاعوجاج وتسوية الشيء: كقولنا ثقف الرمح، أو أي شيء به اعوجاج إذا قوّمته وسوّيته من اعوجاجه وبذلك يصبح مثقفا مقوما. وقد تستعار لفظة "الثقاف" لمواقف أخرى من ذلك ما جاء في رسالة لعبد الحميد الكاتب موجها إياها لكتاب عصره قائلا: "فتنافسوا يا معشر الكتاب في صفوف الآداب، وتفقهوا في الدين وابدأوا بعلم "كتاب الله" عز وجل، والفرائض، ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم[3]، كما جاء على سبيل المجاز قولهم: "ثقف الولد" إذ عني به من ناحية تأديبه وتهذيب أخلاقه، وفي السياق نفسه يقول الزمخشري[4]: "ومن المجاز أدّبه وثقفه ولو تثقيفك وتوقيفك لما كنت شيئا، وهل تهذبت وتثقفت إلا على يدك...".

المعنى الخامس: يتجلى هذا المعنى من فعل "ثقف" في التفوق في أمر ما، والقدرة على إتقانه والحذف فيه، واكتساب المهارة الفائقة فيه وقد جاء هذا المعنى عند ابن خلدون في المقدمة أيضا.

المعنى السادس: الفهم والذكاء، غلام لقِنٌ ثقفٌ، أي ذو فطنة وذكاء، والمقصود من ذلك أنه على قدر كاف من المعرفة الثابتة بما يحتاج إليه.

ويبدو أنّ بعض هذه المعاني من فعل "ثقف" قد أهمل ولم يعد مستعملا في أيامنا هذه، ويمكن القول انّ المعنى الجامع لها هو قدرة الفرد على الإدراك على وجه الإطلاق سواء تم ذلك عن طريق البحث والنظر والتأمل، أو بغير ذلك من الوسائل.

هذه بعض معاني فعل "ثقف" والذي تشتق منه كلمة ثقافة وهي مدار المقال، والتي نعرض لها في السطور الموالية، فما مدلول هذا المصطلح؟

فالثقافة "*la culture*"[5]، مأخوذة في الحضارة الغربية من اللفظ اللاتيني *la cultura* بالقرون الوسطى *latin médiéval*، والمعنى الحقيقي الأول لها هو فلاحة الأرض وذلك بشقها وتزويدها بالأسمدة المناسبة بعد وضع البذور فيها وغرس أنواع الأشجار وجني ثمارها، إلاّ إن هذه اللفظة لم تتوقف عند هذا المفهوم وحسب فقد توسعت مدلولاتها المجازية بحسب الدواعي والحاجات وتنوع الأفكار، وقبل الإشارة إلى بعض معانيها، تجدر الإشارة إلى أنّ المفهوم المذكور آنفا - الثقافة وفلح الأرض- والثقافة وإعداد الإنسان من جوانب عدة يعد مناسبا وصائبا لعلاقة المشابهة بين الأرض والإنسان، اللذين يحتاجان بلا ريب إلى العناية والمثابرة في توفير شروط النماء وإبراز القدرات والمواهب سواء تعلق الأمر بقطف الثمار المادية على اختلاف أنواعها، أو الوصول بالإنسان إلى أعلى مراتب الإنسانية من قيم ومثل عليا وسلوك قويم، وفي الحالتين يكون ذلك نتيجة العناية المركزة وتوفير الشروط المطلوبة للنماء والازدهار كل حسب خصوصياته، هذا وقد تعددت تعاريف مصطلح الثقافة في الغرب تبعا لحاجاتهم الفكرية والفلسفية والمذهبية لا يسع المجال للخوض فيها في هذا المقام، وإنما نورد بعض التعريفات التي تمكننا لاحقا من بلورة مفهوم شامل جامع لمصطلح الثقافة، كفيل بخدمة موضوع مقالنا المتعلق بثقافة الطفولة، ونبدأ بالآتي:

الثقافة[6] هي ما يميز شخصا متعلما تمكن من تنمية ذوقه وحواسه وإدراكاته بواسطة المران والتعلم، أو هي عملية تهدف بالأساس إلى صقل العقل وتهذيبه وتقويم السلوك بواسطة التربية والتعليم، وهي كما نرى عملية مقيدة بهذين العاملين، بينما يبدو أنّ للثقافة وسائل أخرى كثيرة ومتنوعة تستند إلى عوامل كثيرة نذكر البعض منها لاحقا، وهناك من يجعل الثقافة تتشكل من ذلك الكم المتضمن[7] لعناصر كثيرة كالعقائد والفنون والمعارف والأخلاق

والقوانين وهذا الزخم من المكتسبات إنما يحصله الإنسان كونه فردا في مجتمع معين، ولعل ما ينحو هذا المنحى في تعريف الثقافة تعريفها بكونها تنظيما للسلوك المكتسب، إذ تنتقل تلك السلوكات بالاحتكاك بين الأفراد في حيز اجتماعي معين، ومع ذلك فإنّ الثقافة ظاهرة حقيقية تتجلى في السلوك الفردي، كما تتجلى في السلوك الاجتماعي ومثال ذلك ما يستشف من نيات طيبة حسنة في الأفعال مثل الإيثار والتسامح والمعاملة الطيبة وجميع الأفعال النفسية التي تنبثق من نفوس أصحابها تلقائيا وفيه خير البشر وصلاح الإنسانية.

ومما يمكن استنباطه من هذه الإشارات الموجزة حول مصطلح الثقافة أنها تناولت ناحيتين بارزتين من حياة الإنسان: ما تعلق بالأفعال التي تعود إلى النشاط العادي كالعبادات والعادات والتقاليد وغيرها بغض النظر عن أي حكم معياري بشأنها، صالحة كانت أم طالحة وهي بذلك كل ما يصدر عن الإنسان فهو ثقافة بمعنى أنّ ذلك يشكل طريقة للحياة، وكل ذلك يندرج ضمن الدراسات الإنسانية وأهمها الأنثروبولوجيا.

وأما الشق الثاني من تلك التعريفات فقد نحى منحى فكريا، إذ أشار إلى مجالات الفكر والأدب، الفلسفة والعلم، الفنون بجميع فروعها وأنواعها، وهذا الاتجاه يهتم بالشعوب المتقدمة التي لها قدم في الحضارة الإنسانية، وبطبيعة الحال كل ذلك من شأنه أن يحدث تأثيرا معينا في نفس الفرد، وينعكس ذلك بالضرورة في سلوكاته سلبا وإيجابا في كل المجالات المذكورة.

ويجدر بنا -بعد هذا- أن نضع مفهوما وجيزا للثقافة مع ربطه بعالم الطفولة لتنبني عليه بقية عناصر المقال، وبهذا الشأن نقول: إنّ الثقافة - بمنظور عملي نفعي- هي عملية مركبة تهدف بالأساس إلى خدمة الإنسان، أينما وجد هذا الإنسان وهي بذلك ابتكار واختراع في الفكر وهي بذلك نضج في العقل، ووعي في القلب، وإرهاف في الشعور واستقامة في السلوك وحِذْقٌ في الأشياء علما وعملا[8].

وهذه العناصر المكونة للإنسان المثقف لن تتأتّى بين عشية وضحاها، وإنما هي عملية معقدة، متشابكة تتجسد بالتدرج والإعداد والاكتساب في كل زمان ومكان، لا تعرف الفرق بين جيل وجيل، ولما كان الأمر يتعلق بنواح عدة في ثقافة الإنسان، فإن اكتسابه لعناصر هذه الثقافة يظل مرهونا بمدى قدرته على استيعاب طبائع الأشياء واستكناه السلوكات المختلفة في مجال المعاملات ذلك أنّ عقول الأفراد وأمزجتهم تختلف باختلاف طبائعهم واستعداداتهم الفطرية في تلقي الأفكار والمفاهيم ولذلك ذكرنا في تعريف الثقافة مواصفات تميز الإنسان المثقف عمن سواه، ولما كان الأمر ههنا يتعلق بعالم الطفولة، فإنّه وجب بالضرورة الإشارة إلى مفهوم الطفولة، كمصطلح يتعلق بمرحلة معينة من مراحل عمر الفرد ثم نربط هذه المرحلة بمصطلح الثقافة، ليتعين علينا إبراز الأسس والخصائص التي تنبني عليها هذه العملية البالغة الأهمية.

الطفولة: *Enfance*:

يعني هذا المصطلح تلك المرحلة من عمر الإنسان والتي تبدأ من الولادة إلى مرحلة المراهقة وهي المرحلة التي يتدرج فيها الفرد من سنة إلى سنة في اكتشاف الوجود ومكونات المحيط الذي يعيش فيه، وقد درج علماء النفس إلى تقسيم هذه المرحلة إلى فترات متكاملة، الطفولة الأولى من مرحلة الرضاعة -حوالي السنة الثانية-، إلى مرحلة التمدرس في السادسة، ثم مرحلة الطفولة الثانية وتبدأ من سن السادسة إلى سن المراهقة -حوالي اثنتي عشر سنة-، والتقسيم لا يعني بأية حال فصلا بين سنين عمر الطفل وإنما تمييزا ينطلق من الخصائص النفسية والفيزيولوجية التي تميز نمو الطفل في هذه الحقبة من عمره، ولما كان موضوعنا هو ثقافة الطفل، وقد ألمحنا في التعريف الوجيز السابق إلى مراحله، فإنه من الضروري الإشارة إلى بعض الخصائص النفسية والفيزيولوجية للطفل حتى يتسنى لنا لاحقا معرفة ما يمكن أن يناسبه من معطيات ومواضيع ثقافية تناسب سنه، بل وقدراته الإدراكية تساعد على الاكتساب وتنمية المواهب وصولا إلى النمط الثقافي الذي نروم تحقيقه وجعل الطفل يستوعبه ويتجلى في

سلوكاته المختلفة، وبهذا الشأن سنعرض بإيجاز أهم خصائص مرحلة الطفولة الثانية والتي حددناها من سن دخول المدرسة إلى مرحلة المراهقة الأولى، وذلك لكون مرحلة الطفولة الأولى لا يتمكن الطفل من القراءة خلالها، لأنه لم يدخل المدرسة بعد، ويجهل آليات القراءة والكتابة، ولقد وضع العلماء المختصون طرقا ووسائل أخرى لتهيئة الطفل، في هذه السن المبكرة للقراءة والمطالعة والبحث، لا يسع المجال لذكرها منها على سبيل المثال: الرسوم المتحركة، الألوان المختلفة عبر مجسدات، اللعب بأدوات معدة لهذا الغرض، القصص الخاص بالطفل...الأصوات...

وما يهمنا فيما يتعلق بالخصائص النفسية والفيزيولوجية للطفولة الثانية أنّ الطفل خلال هذه المرحلة، يبدأ مرحلة اكتشاف محيطه الاجتماعي بدخوله المدرسة واحتكاكه بأقرانه وخضوعه لنظام لم يعهده من ذي قبل، ثم شروعه في تعلم القراءة والكتابة متدرجا في العملية من سنة إلى أخرى مكتسبا آليات فك الرموز وفهم مضامين التراكيب كل ذلك في حدود نطاق مداركه العقلية والنفسية، وانطلاقا من مكتسباته الأسرية التي تعتبر من الأسس التربوية في اعتماد المنهاج المدرسي، ومن هنا تبدأ عملية إعداد الأجيال عبر عالم الطفولة، إذ وبالتوازي مع النمو الفيزيولوجي في هذه المرحلة الحساسة من عمر الطفل وما يجب أن توفر لها من إمكانات مادية لمقتضياتها، تنمو مداركه العقلية بالتدرج مرحليا في إكسابه آليات القراءة الواعية والتي تغطي مواضيعها ما يمكن ان يناسب قدرات الطفل العقلية والفكرية، ومتماشية مع بيئته بمختلف مظاهرها، والتي تثير فضوله فيتفاعل معها تفاعلا يمكنه من اكتساب المعلومات عبر التجارب المختلفة فيما يعرض له من مسائل وفقا لخطط تربوية محكمة تعتمد على أهم النظريات النفسية التي تزود القائمين على شؤون التربية والتعليم بأهم الطرق الناجعة الكفيلة بإعداد الطفل إعدادا متكاملا عقلا وجسما، إذ تزوده بالوسائل الكفيلة يجعله شغوفا بحب الإطلاع واكتساب المعارف، وخوض التجارب واستنتاج القواعد

المختلفة، ونقدها وتطبيقها، ومن هنا تبدأ رحلة الثقافة في عالم الطفولة.

معنى ثقافة الطفل: لقد سبقت الإشارة إلى معنى الثقافة وأشرنا إلى أنها تنبني على عناصر متفاعلة ومتكاملة منها ما يتعلق بالعقل والشعور والاستقامة في السلوك، ومنها ما يتعلق بالمهارات والحذق في إنجاز الأعمال المادية وما إليها ولما كان الأمر يتعلق بكل هذه النواحي مجتمعة مع وجوب تجليها في أقوال وأفعال وردود أفعال، فهل بإمكان الطفل في هذه المرحلة أن تمكنه قدراته العقلية والفكرية والنفسية من بلوغ هذا المستوى من الثقافة؟

والواقع أنّ ثقافة الطفل - في نظرنا- تعني بالدرجة الأولى عملية تهيئة وإعداد **للتثقيف والتثقّف** عبر ما يقدم لهذا الطفل من وسائط ووسائل متنوعة، متضمنة لعناصر فكرية وسلوكية بخطة محكمة تراعي سنه، وقدراته العقلية والفكرية، وميولاته المختلفة، وتثير فيه حب المعرفة والإطلاع، وتستنفر قواه العقلية، فيتفاعل تفاعلا حقيقيا مع ما يقدم له بإيجابية وفعالية، ومن هنا تبدأ عملية التثقيف المباشر عبر الاختيار الذّاتي والانتقاء والاكتساب، مما يغرس في نفس الطفل أشكالا من الفضول الواعي الإيجابي والتي تشكل بلا ريب حافزا حقيقيا يدفع بالطفل إلى محاولة اكتشاف أنماط أخرى من الأفكار والمعاني والقصص والسلوكات المشابهة لما تلقاه، وبوسائله وقدراته الخاصة، وهذا ما يشكل عملية **تثقّف**، والفرق بين الصيغة الأولى (تثقيف من ثقّف: فعّل)، فالفعل حاصل وواقع على الطفل من طرف ثان (وسيلة تثقيف معينة)، أما في حالة: تثقّف: تفعّل، فهي تدل على انفراد الطفل بالتحصيل الثقافي نتيجة عوامل نفسية تحفيزية غرست في نفسه بالتعهد والمران والمثابرة فتدفعه للبحث تلقائيا، ولكن كيف يمكن لنا أن نصل بالطفل إلى هذا المستوى الإيجابي، والذي يصبح فيه قادرا على الاعتماد على نفسه، في اكتساب ألوان الثقافة، ليغدو - **مستقبلا**- إنسانا مثقفا واعيا بوجوده مفيدا لنفسه ولغيره؟

إنّ الإجابة عن هذا السؤال تحيلنا بلا ريب إلى وسائل وعوامل كثيرة في عملية إعداد الطفل لعالم الثقافة الحقة، وهي كثيرة متنوعة، كالأدب المنثور والمنظوم، الصحافة، الرسوم، الأفلام، لوحات الإشهار، الإنترنت، وغيرها كثير...

ومن هذه الوسائل يتناول المقال:

<u>لغة الشعر وثقافة الطفل</u>:

لكل أمة انتماء حضاري جذوره ضاربة في أعماق التاريخ، ومن هنا تحرص كل أمة تحترم نفسها وتحافظ على كيانها بين الأمم على دعم عناصر هذا الانتماء، وترسخ دعائمه مادية أو معنوية في النفوس بالممارسة الفعلية في شتى مجالات الحياة مما يثبت ركائز هويتها ويحافظ على كيانها مستقلا ومتميزا دون أن يحول كل ذلك من احتكاكها بالأمم الأخرى والاستفادة من التراكم الحضاري الحاصل بين هذه الأمم، وذلك بمعاييرها الخاصة، ولعل أبرز عناصر هذا الانتماء الحضاري: **اللغة !**

ولسنا نشك لحظة في أنّ التمكن من هذه الوسيلة تمكنا تاما بكل المواصفات التي تقتضيها علوم اللسان كفيل بتحقيق عملية الاتصال والتواصل بين الأفراد والجماعات بل أكثر من هذا الوصول بالإنسان إلى مراحل الابتكار والإبداع، وما إلى ذلك من الوظائف التي تؤديها اللغة إذا تمكن منها المتكلم وأتقن أساليبها الراقية، إذ نعلم يقينا أنّ اللغة المستعملة في التواصل تكون على ثلاث مستويات: لغة عامية يتعاطاها عامة الناس (الدارجة)، ثم لغة رسمية يتم تداولها في المؤسسات العمومية، وهناك لغة أرقى أسلوبا، وأنقى لفظا وأرفع معنى، وهي لغة الأوساط الراقية فكرا والغزيرة تجربة والأوسع اطلاعا والأرهف شعورا هي لغة الأديب المثقف، لأنّ الثقافة عنده ليست مجرد علوم وصناعات أو عادات مكتسبة وتقاليد، وإنما هي سلوك واع وفهم وإدراك لأنماط الحياة وتعبير راق عن كل تلك المجالات بلغة أرقى وأشد تأثيرا في النفوس ولعل أخصب مجال لممارسة هذا الشكل من التعبير: فن الشعر.

فما علاقة هذا كله بثقافة الطفل وعالمه البريء؟، لقد أشرنا في بداية المقال أننا في عالم الطفولة بصدد الإعداد والتهيئة لنمط الرجل المثقف لاحقا، المثقف بمفهوم الثقافة الإيجابي الذي ينافي كل أشكال التقليد الأعمى والجمود المثبط، ومن هنا فإنّ ما يقدم للطفل إنما يرمي إلى أمور كثيرة تتعلق بشخصيته ووجدانه وانفعالاته وميوله وغير ذلك كثير، ونكتفي ههنا بالإشارة إلى الأمور التالية:

أ- لغة الشعر وآثارها في تكوين ذوق الطفل وتزويده بالثروة اللغوية.

ب- لغة الشعر تمكن الطفل من تنمية عناصر هويته التي أبرزها اللغة.

لغة الشعر والترجمة:

إن معرفة لغة ثقافة الآخر والاستفادة منها يعزز عناصر الهوية لدى الطفل من خلال اللغة المترجم منها.

إنّ الحديث عن معنى الشعر يطول وليس المجال مجاله وإنما نشير إلى أنّ هذا اللون من فنون الأدب العربي هو كلام موزون مقفى متخير اللفظ، دقيق العبارة، رشيق الأسلوب، شديد التأثير في النفس، بجرسه الموسيقي عبر قوافيه المختلفة وأوزانه وتفعيلاته المتناغمة ! إنّ لغة الشعر -الشعر الرصين الهادف- لغة أخاذة تستهوي الأذن وينجذب إليها الطفل بسهولة بميوله الفطري لكل ما ينبعث منه جرس موسيقي ونغم رقيق يهز كيانه خاصة إذا خضعت المقطوعة الشعرية للمقاييس والمعايير التربوية والنفسية التي تجعلها تتماشى مع قدرات الطفولة العقلية وقدرات الاستيعاب والتحصيل والتذوق ومداركه الخاصة فيقبل عليها بنهم كبير ويتأثر بها أيما تأثر، ألم يشر إلى هذا الفيلسوف الصيني الشهير (كونفوشيوس)، عندما تحدث عن الأهداف التربوية من المنهاج التربوي في المدارس عندما خصّ الشعر بتهذيب النفوس ورشاقتها وإرهاف الأحاسيس وإنماء الثروة اللغوية للمتعلم !

ذلك أنّ الإنسان هو الإنسان أينما حل وارتحل يبقى بحاجة إلى لغة العواطف والوجدان مهما كان تفوقه في تخصصات علمية

دقيقة، والدليل على ذلك أنّ الكثير من الأطباء والمهندسين برعوا في هذا المجال إضافة إلى مجالات تخصصاتهم. هذا إضافة إلى أنّ لغة الشعر أكثر رسوخا في الذهن من لغة النثر للاعتبارات السالفة الذكر، وأكثر تأثيرا في الوجدان، وأوسع مجالا للمعاني الراقية، والمثل العليا والقيم التربوية الناجعة.

ولما كانت اللغة هي من أبرز مقومات الهوية للأمة، وكان للغة الشعر من الخصائص التعبيرية والأسلوبية الكثيرة فإنها بلا ريب تنمي لدى الطفل عوامل الاعتزاز بهويته، وعلى رأسها اللغة، وذلك عبر ما يقدم له من قصائد ومقطوعات متنوعة، تتناول المناحي التي تخدم هويته مثل التاريخ والاجتماع والدين، وحب الوطن، والسير وغيرها كثير، وكل ذلك من شأنه أن ينمي لديه الاعتزاز بمقومات وعناصر هويته وعلى رأسها اللغة، ومن هنا ستتكون لديه عبر هذا الاعتزاز مناعة صلبة قوية تقيه شر التقليد الأعمى والذوبان في الغير، خاصة وهو يتعامل مع أعذب الشعر وأصدقه على حد قوله أحدهم:

والشعر ليس بنافع إنشاده * حتى يكون عن الحقيقة معربا**

وقول الآخر:

وإنّ أحسن بيت أنت قائله * بيت يقال إذا أنشده صدقا**

ومن التجربة الميدانية أنّنا حُفّظنا قصائد ونحن في مصف المتوسط تناولت شتى المواضيع مازالت عالقة بأذهاننا إلى اليوم، وما زال سحرها يسري في نفوسنا، تُستنبط منه المعاني الرفيعة والسلوك القويم، وما أحوج جيل اليوم إلى مثل هذه الحوافز المعنوية !، لننظر هذا القائل في علو الهمة والإباء والتعفف:

همتي همة الملوك ونفسي * نفس حر ترى المذلة كفرا**
أنا إن عشت لست أعدم قوتا * وإذا مت لست أعدم قبرا !**

أيعرف شباب اليوم معنى الهمة وعلو الهمة؟، وأنى له ذلك؟، وأغلبهم يرى الشعر مضيعة للوقت وحشوا للأذهان بما لا يساير الزمان وهمه في مظهره وتسريحة شعره !

والذي يقرأ البيتين التاليين بإمعان:

وما الحسن في وجه الفتى شرفا له * إذا لم يكن في فعله والخلائق**
وما المرء إلا الأصغران لسانه * ومعقوله والجسم خلق مصوّر !**

ويفهم مغزاهما لا ريب أنه لا يلعن الريح إذا هبت وأفسدت له تسريحة شعره الملطخ بالدهون المستوردة وقد قضى دهرا لذلك أمام المرآة، وعفرتها بالغبار لأنه ساعتها ينطبق عليه قول الآخر:

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته * لتطلب الربح فيما فيه خسران**
أقبل على النفس واستكمل فضائلها * فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان**

لقد تحدى الله عز وجل الثقلين بالكلمة وآخر صلة السماء بالأرض الكلمة، لأنها الوسيلة المثلى في الاتصال والتواصل، وأبلغ الكلام بعد القرآن الكريم وسنة النبي (ص) الشعر، ألم يشهد له الرسول (ص) بالحكمة، (إنّ من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة !)، ولقد دعا العلماء المختصون بعد كل ذلك إلى الاعتماد على الشعر في تنمية القدرات اللغوية فقد ذكر ابن خلدون فيما يتعلق باكتساب الملكة اللغوية بضرورة الاحتكاك بمنظوم كلام العرب ومنثورهم، لاستقامة اللسان واكتساب الزاد اللغوي للفرد، وهذا قبل احتكاكهم بالقرآن الكريم.

ولكن سؤالا يطرح نفسه في هذا المجال: هل نكتفي بالموروث الشعري وما ينظم له العربي فقط فنجعل الطفل يتقوقع في زاوية ضيقة لا مجال فيها للإطلاع على منظوم الكلام في لغة أخرى؟ وتبعا لذلك تطرح مسألة لغة الشعر والترجمة.

إنّ الإطلاع على ثقافة الآخر -أينما كان هذا الآخر- مسلمة لا تقبل النقاش، والسعي إليها والاستفادة منها فرض عين على كل من أوتي قدرة على ذلك وفي ذلك السعي من الفوائد الجنة ما لا يمكن إن

تسعه سطور مثل هذه، فقد أقبل الغرب على ترجمة دواوين الشرق إلى لغاته، ونسأل أبناءنا عن "اللهب المقدس" فلا يعرفونه، وإن سمعوا به لم يقرؤوا منه بيتا، فأين به من رباعيات الخيام المترجمة إلى لغات العالم وغيرها كثير...

على أنّ هذه المسألة - الشعر والترجمة - فيها ما يقال، لأنها عملية نقل او تحويل ثقافة من لغة إلى لغة، من لغة الكتابة الأصلية إلى لغة ثانية وهي عملية على جانب كبير من الأهمية والخطورة.

وقبل الإشارة إلى ذلك، فإنّ ما كتب بلغة معينة مهما كان صنفه فهو ينتمي إلى تلك اللغة لأنه يحمل بذور ثقافة القوم الذين يستعملونها، وتتضمن خصائصهم وطرقهم في التفكير وعقائدهم وما إلى ذلك، وتبعا لذلك، وجب إسناد عملية الترجمة -بالضرورة- إلى من أوتي حظا كافيا في ثقافة قوم هذه اللغة دون أن نذكّر بوجوب إتقانه للغة الأم المترجم إليه، والتي يجب أن يخضع عمله لمعاييرها، ونعني بذلك المبنى والمعنى على حد سواء: فأما من جهة المبنى فيجب عليه ان يتخير أساليب العربية الراقية التي تسحر الألباب لأنها لغة شعر، كما يتم عرض كلام على قواعد العربية الفصحى، حتى لا تتشوه المعاني وتصاب بالابتذال والركاكة فتمجها الأسماع وتنفر منها الأذواق، وأما من جهة المعاني فلا ريب أنّ غربلتها ضرورة أخرى فانظر مثلا إلى ترجمة عبارة: أثلجْتَ صدري، فإن ما يقابلها بالفرنسية على سبيل المثال عبارة Vous me réchauffez le cœur، إذ نلاحظ تأثير البيئة في صوغ العبارتين ! غير أنها تحلّق في أجواء إنسانية رحبة تخدم البشر أينما وُجد كالعدل والإخاء والتسامح والعمل الجاد وغيرها.

فهذه قيم لا حدود لها ولا لون، ومنها ما يحتاج إلى تلوينها بلون الثقافة المحلية الخاصة التي تحمل بذور الهوية للأمة وذلك مثلا ما تعلق بقيم الدين والأخلاق وغيرها، فقد رأينا من انبرى للترجمة من كتّاب وشعراء وأسهموا في إثراء المكتبات بأعمال جليلة خدمت

الأجيال وملأت آفاق حياتهم أملا بما قرؤوه مترجما مثل ما فعل المنفلوطي في ترجمة بعض روايات ألفونس كار في القرن الماضي.

ومن منّا لا يتغنى إلى اليوم بتلك الأبيات الرائعة التي تلقيناها في مرحلة الابتدائي تحث على العمل والجدّ والكدّ دون كلل ولا ملل للشّاعر الفرنسي Jean de la Fontaine بعنوان:

Le laboureur et ses enfants

Travaillez, prenez de la peine :
C'est le fonds qui manque le moins.
Un riche Laboureur, sentant sa mort prochaine,
Fit venir ses enfants, leur parla sans témoins.
Gardez-vous, leur dit-il, de vendre l'héritage
Que nous ont laissé nos parents.
Un trésor est caché dedans.
Je ne sais pas l'endroit ; mais un peu de courage
Vous le fera trouver, vous en viendrez à bout.
Remuez votre champ dès qu'on aura fait l'Oût.
Creusez, fouiller, bêchez ; ne laissez nulle place
Où la main ne passe et repasse.
Le père mort, les fils vous retournent le champ
Deçà, delà, partout ; si bien qu'au bout de l'an
Il en rapporta davantage.
D'argent, point de caché. Mais le père fut sage
De leur montrer avant sa mort
Que le travail est un trésor.

إنّ هذه الروائع تحتاج فعلا إلى فعل الترجمة الجاد ولا ريب أنّ فوائدها جمة إذا تعهدناها بالمثابرة وحسن التقديم، فأبناؤنا بحاجة ماسة إلى مثل هذه الأشعار ذات القيمة التربوية الهادفة، والتي من شأنها أن تصحح مفاهيم الطفل وتقوم سلوكاته فتجعله سويا محبا للخير ساعيا إلى ترقية نفسه بما أوتي من قوة، وكما نرى فإنّ عملية التنشئة الثقافية لعالم الطفولة تكتسي أهمية قصوى ترصد لها الأمم من

الإمكانات المادية والبشرية ما يمكنها من تحقيق مآربها في هذا المجال لعلمها أنّ الاستثمار الحقيقي إنما يكون في الإنسان ومنذ ولادته، بالاعتماد على كل الوسائل المحققة لهذا الغرض، المتمثل في تشكيل النمط المنشود من الرجال المثقفين القادرين على خدمة أنفسهم وبلدهم بعد أن تكون كل تلك الوسائط المثقفة قد زالت واندثرت، وبقيت السلوكات الحميدة والقيم الثابتة والمهارات المفيدة لأنّ الثقافة في النهاية على حد قول أحدهم هي حصيلة ما تبقى في أذهاننا بعد أن نكون قد نسينا كل شيء:

"*La culture, c'est ce qui reste quand on a tout oublié*".

هوامش:

1- ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1988/1، مادة ثقف.

2- ابن خلدون، المقدمة، مكتبة المدرسة ودار الكتب اللبناني، د.ط، 1967، ص44.

3- ابن منظور، م.س.

4- ابن خلدون، م.س.

5- Le Petit Larousse, Paris, 2008, p.277.

6- André Lalande, Vocabulaire technique et critique, Paris, Presses Universitaires de France, pp.199-200.
Paul Robert, Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française (culture).

7- Taylor, B. Primitive culture (London, John Murray), 1971, p.1.

8- مجمد بن عبد الكريم الجزائري، الثقافة ومآسي رجالها، شركة الشهاب، الجزائر، ص21-22.

9- Le Petit Larousse, Op.cit., p.368.